العرب
الأحد 2020/04/19
السنة 42 العدد 11682

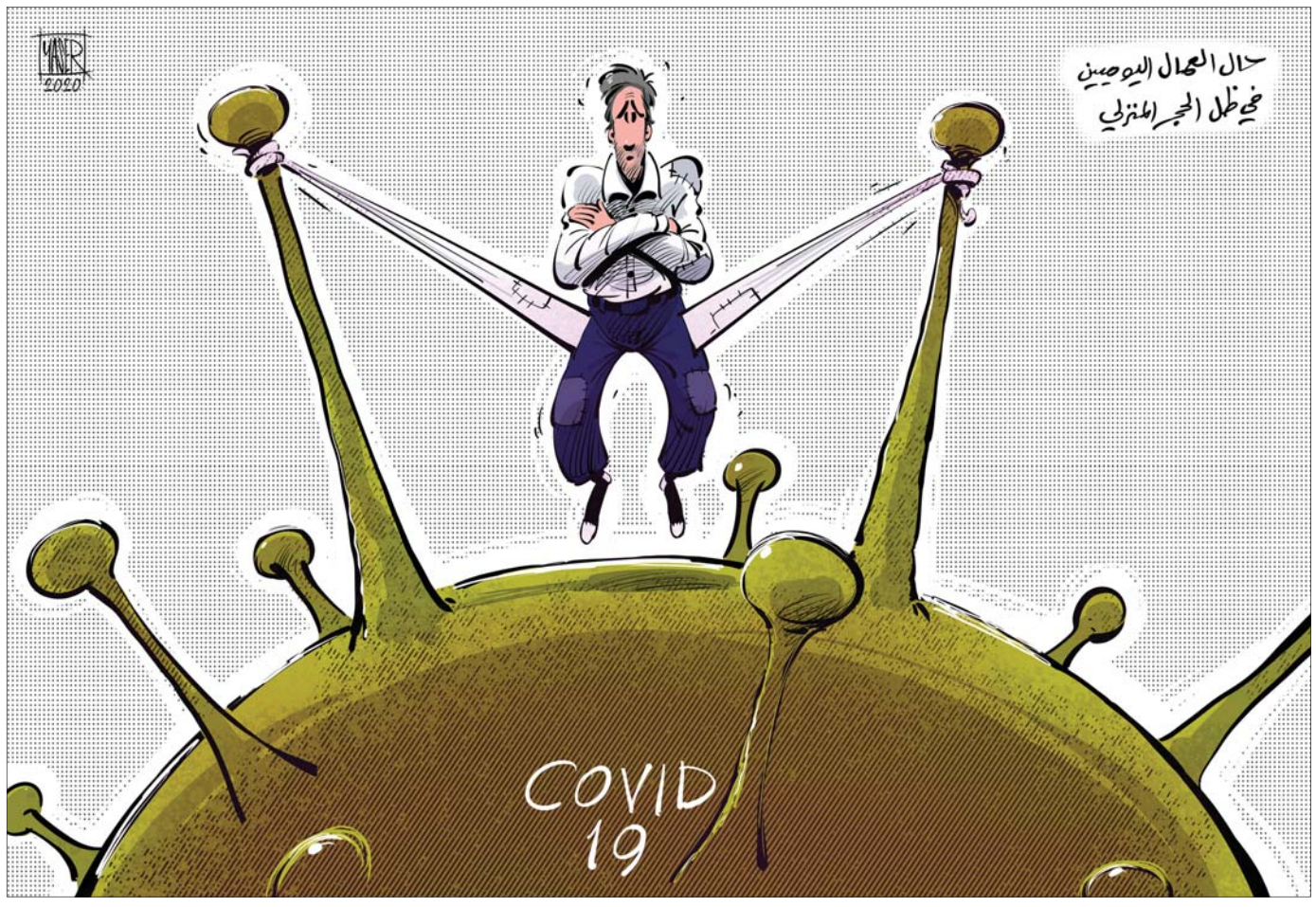

جيش مصر الأبيض ورسائل الغرام والانتقام السياسية

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

قد لا تكون هناك دولة في العالم أسرفت رسميا وشعبيا في إظهار غرامها بالطواقم الطبية كما حدث في مصر، وربما لا توجد دولة بالغ معارضوها في تقزيم دورهم كما حدث في مصر أيضا، حيث سلط كل جانب الضوء على الزاوية التي يريدها وتحقق لفريقه رسائل إيجابية أو سلبية، وتحول الدور الذي تقوم به هذه الطواقم إلى ما يشبه المبارزة السياسية.

أدى الغرام إلى إطلاق وصف "جيش مصر الأبيض" على العاملين في المجال الصحي تأكيدا للدور البطولي الذي يقومون به في محاربة فايروس كورونا، ووجودهم في مقدمة الأجهزة التي تكافح الوباء. واستمد لونهم من اعتياد هذه الطواقم ارتداء اللون الأبيض الناصع، أما الوصف فهو يشير إلى التماهي لحد التطابق في التصرفات العلمية مع المرض العضوي والممارسات المتقنة للجيوش النظامية مع الأعداء.

لا يخلو وصف الجيش الأبيض أيضا من معان عسكرية رنانة ومريحة للبعض، حيث جرى وصف الجيش الروسي في الحقبة السوفييتية بالأحمر، وكان من أقوى الجيوش في العالم.

تطرب شريحة كبيرة من المصريين لجيش بلدهم وقوته في المنطقة، ومهما كانت التحفظات حول تمدده في بعض القطاعات المدنية، إلا أن الوباء جاء وبدّد جزءا مهما من الهواجس التي أثارتها تدخلاته في أمور بعيدة عن مهامه القتالية، وسدت بنيته الصلبة ومصانعه وجوها لوجستية كثيرة من قبيل النقص في الأسّرة والمعدات الطبية والمطهرات والقفازات والكمامات، وحتى رشّ المواد القاتلة للفايروسات والميكروبات في الشوارع والمباني الرسمية.

تفاعلت أجهزة الدولة مع العبارة الرنانة (جيش مصر الأبيض). وبدت مرادفة للطواقم الطبية، كإشارة تعزز العلاقة الوجدانية بين المؤسسة العسكرية والمواطنين. وجرى العزف كثيرا على هذا الوتر بما حفر صورة ذهنية تؤكد الوجود الطبيعي للجيش في قلب الحياة المدنية، فكل وسائل الإعلام تردّد العبارة ليلا ونهارا وقدّمت جرعة متخمة منها، وشدا مطربون ومطربات بالجيش الجديد في أغنيات متعددة، وتسابقت هيئات ومؤسسات في الإشادة بأفراده.

تتجول في شوارع القاهرة الرئيسية مساء كل يوم عربات تابعة لإحدى الشركات الإعلامية القريبة من الدولة. تحمل مكبرات صوت تصدح بإذاعة أغان خاصة بالجيش الأبيض. وتتغزل بالمنتمين إليه من أطباء وممرضين ومسعفين. وتتعمد الذهاب إلى بعض المستشفيات لتحية الطواقم الطبية، بغض النظر عما إذا كانت متخصصة في اختبارات كورونا وعلاجه أم لا.

تحولت المسألة إلى فقرة موسيقية ليلية مرحة تتناسب مع حالة الشغف للخروج سريعا من شرنقة الأزمة.

وتتفاعل فئة عريضة من المصريين مع الأهازيج بتحيتها وأفرادها يقبعون في منازلهم تحت جبروت العزل، كنوع من الاعتراف بالدور الحيوي الذي يقوم به العاملون في الحقل الطبي، على غرار ما يحدث في دول أخرى.

تزيد عليهم الحالة المصرية رفع الأعلام الوطنية من الشرفات، وهي رمز يُخرج التكريم من الحيّز المعنوي إلى المادي، ويدمج المكرمين في النسيج العام للجيش الوطني الحقيقي، ويسد فجوات سابقة أرادت بعض القوى ترسيخها بين المؤسسة العسكرية والمواطنين.

التقط معارضون ينتمون لجماعة الإخوان وبعض المتعاطفين معهم من التيار اليساري ومن خسروا معركتهم الشخصية مع المؤسسة العسكرية من سياسيين وإعلاميين، الوصف الذي أصبح دارجا ومتداولا على نطاق واسع في الحياة العامة حاليا وهاجموه بضراوة، بزعم أنه يمثل صورة أخرى لما يسمى بـ"العسكرة" المصرية، ولم يلتفتوا إلى جوانب خفية عميقة في الوصف كبدت منتقديه خسائر مضاعفة.

أطلق الوصف كنوع من الاعتراف البديهي بالجميل للطواقم الطبية، وهو ما أثلج صدور المشاركين فيها، إذ جرى رفع تقديرهم إلى مستوى يناهز الجيش كأهم مؤسسة وطنية، في الدور الذي يقوم به في الحروب والمكانة في قلب دولاب الدولة والقيمة الأدبية التي يحظى بها أفراده في المجتمع، حتى لو كان اللفظ يحمل معان سياسية مواربة لدى من أطلقوه وروجوا له، ففي النهاية ينطوي على تقدير لأصحابه، ولذلك وجد صدى بالغا لدى الطواقم الطبية ذاتها.

كتبت إعلامية عربية عملت في مصر لفترة وجرى ترحيلها قبل حوالي عامين على صفحتها الخاصة على تويتر مؤخرا، عبارات تحمل شجبا وإدانة وتطاولا لوصف الجيش الأبيض، وكالت الاتهامات للمصريين الذين أدمنوا حب الجيش أو "العسكرة" بسبب تفاعلهم مع الشعار الذي أوجده كورونا، وفجرت كلماتها سيلا من الردود المحملة بالشتائم التي بدت كاختبار يعزز الارتياح للوصف كرمز للوطنية التي ينكرها كثيرون من معارضي النظام الحاكم.

أحرز التجاوب الواسع مع الجيش الأبيض تقدما أنسى الناس الوصف التقليدي للطبيب في الذاكرة الجمعية، وهو "الحكيم" والذي يردده مواطنون في قرى وريف مصر حتى الآن، كدليل على الفطنة والرشاد والذكاء، كما أنساهم محاولات لي أعناق بعض الأحداث من قبل تركيا وقطر والإخوان، وقناة الجزيرة وغيرها من القنوات التي تبث إرسالها من إسطنبول.

بدت عملية النيل من الدور الذي يقوم به الأطباء أو الجيش الأبيض كأنها انتقام من النظام الحاكم والجيش الذي يتولى مسؤولية الدفاع عن الدولة المصرية، فهما متلازمان عند الإخوان مثلا، وتصوّر هؤلاء أن تجريد الوصف من مضمونه الطبي أو تحميله معان عسكرية صرفة كافيا بمحوه ووقف ترديده.

> تجربة الجيش الأبيض منحت المؤسسة العسكرية المصرية نصرا بلا حرب على خصومها الذين استهدفوا تقويض دورها لفترة طويلة، الأمر الذي يجعلها أكثر اطمئنانا وثقة في المواطنين

إذا كان الغرام والانتقام لا يخلو كلاهما من مكونات سياسية، فإن أنصار الفريق الأول حققوا نجاحا لافتا من خلال التجاوب الشعبي الكبير معه، بينما لم يتمكن الفريق الثاني من تحويل الوصف إلى قيمة مركزية لاستمرار التكسير في جسم النظام، بل تسبب الهجوم الحاد في تكسير عظام من لم يفرقوا بين الجائحة الصحية والجائحة السياسية، في سبيل تهشيم شكل المؤسسة العسكرية، وهدم ما راكمته من تقدم في المشروعات المدنية.

من صكوا عبارة "جيش مصر الأبيض" عن قصد وساهموا في تسويقها كانت لديهم حسابات سياسية تتعلق بإزالة التباسات سابقة سادت حول المؤسسة العسكرية، ومحاولة فتح صفحة جديدة تنطلق من التلاحم بين الجيش والصفوف المدنية، بالتالي إزالة جفوة ظهرت معالمها في السنوات الماضية بين الجانبين، عندما سعت قوى شبابية متعاطفة مع الإخوان إلى تعكير صفو العلاقة التاريخية بين النخبة العسكرية وشريحة كبيرة من المدنيين، بحجة أن الأولى تريد فرض قبضتها على الثانية، ومتخلية عن مهامها في الدفاع عن الحدود.

كسب الجيش معاركه المسلحة ضد الإرهابيين على الحدود وفي العمق المصري، وحقق تفوقا في حروبه المتقطعة مع السياسيين، ويتجه نحو إعادة ترتيب الأوضاع بما قد يجعله يفكر في التخلي مستقبلا عن عمليات التأهيل لفئة من المصريين عبر عقد دورات حول دروس أمنية وسياسية لضمان حماية النظام الحاكم بدلا من الاستعانة بوجوه عسكرية في الحياة المدنية.

منحت تجربة الجيش الأبيض المؤسسة العسكرية المصرية نصرا بلا حرب على خصومها الذين استهدفوا تقويض دورها لفترة طويلة، الأمر الذي يجعلها أكثر اطمئنانا وثقة في المواطنين، فتفاعلهم يحمل إشارة سياسية لمن روجوا أن هناك تململا من تغلغل قيادات الجيش في الصفوف الشعبية، وهذه النتيجة سوف تكون لها تأثيرات على خطوات تدريب الكوادر التي تتم بإشراف مؤسسة الرئاسة المصرية، فالجائحة كشفت حجم الاستعداد الفطري للتعاون والتنسيق وعدم الحاجة إلى إجراءات حماية شعبية مبطنة للنظام الحاكم.

طريق كورونا مفروشة بالنوايا الطيبة

علي قاسم
كاتب سوري
مقيم في تونس

خلال شهر ديسمبر، عام 1988، أثارت وزيرة الصحة البريطانية في ذلك الوقت، إدوينا كاري، الفزع بسبب تعليقاتها عن البيض وبكتيريا السالمونيلا، عندما قالت إن "معظم إنتاج البيض في بلدنا (بريطانيا)، للأسف، مصاب بالسالمونيلا".

التصريح الشهير كلّف إدوينا منصبها واضطرها للاستقالة. ليثبت لاحقا أن هناك بالفعل مشكلة تتعلق بوجود السالمونيلا في البيض، في ذلك الوقت.

وبحلول التسعينات من القرن الماضي، بدأ المنتجون برنامجا للتحصين. والآن بعد 30 عاما، أصبح البيض في بريطانيا من بين الأكثر سلامة للصحة في العالم.

السياسيون في تعاملهم مع الأوبئة كمن يسير في حقل من الألغام، لا يعلمون متى ينفجر لغم تحت أقدامهم. رأينا ذلك يحدث في الماضي، مع ظهور السالمونيلا، ومع ظهور جنون البقر وإنفلونزا الخنازير.

واليوم نرى ذلك يحدث، ويتكرر عشرات المرات، مع ظهور وتفشي وباء كورونا؛ المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، تحدثت منذ الأيام الأولى عن احتمال إصابة 60 إلى 70 في المئة من الألمان بالفايروس، ورئيس الوزراء البريطاني طلب من الناس أن يودعوا أحبابهم.

الرئيس الأميركي دونالد ترامب، الذي اعتاد إطلاق التصريح ونقيضه، خلال 24 ساعة، تعامل مع وباء كورونا بنفس الأسلوب، يطلق التصريح ليتبعه بتصريح معاكس.

هل يمكن أن نلوم السياسيين على إطلاقهم تصريحات تأتي أحيانا متناقضة، وأحيانا أخرى تجانب الصواب؟ الطبيون لا يعتقدون ذلك، فالسياسيون إن لزموا الصمت وامتنعوا عن الإدلاء برأيهم سيلامون فيما بعد، وهو سيلامون أيضا على كل تصريح خاطئ، وليس أمامهم أن يفعلوا إلا ما فعله ترامب، يتخذ القرار ويطلب من الله أن يكون على صواب بقراره.

بالطبع، هذا إن كانت نوايا الحاكم صادقة؛ عندها إن هو "اجتهد ثم أصاب فله أجران" وإن "اجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد". ولكن، الإنجليز على الأقل لا يؤمنون بحسن النوايا ولديهم مثل شهير يقول "الطريق إلى جهنم مفروش بالنوايا الطيبة".

تسلح ترامب بالطيبة ولجوؤه إلى الله في كل قرار يتخذه لن يحمياه من اللوم والتقريع، إن هو اجتهد فأخطأ. وكذلك لن يحمي حكام الصين، فهم لن يجدوا من يتعاطف معهم في حال ثبت أنهم قصروا في تعاملهم مع فايروس كورونا، وتسببوا في انتشاره عبر العالم.

ورغم أن الصين، التي ظهر فيها الفايروس أواخر العام الماضي، تعاملت مع الخطر المحتمل بجدية. وفرضت حالة العزل العام لمدة 70 يوما. ونجحت في منع انتشار الوباء داخل أراضيها، إلا أن الولايات المتحدة وأطراف أوروبية أخرى تحمّلها مسؤولية تفشي الوباء عبر العالم.

المسؤولون في الصين متهمون اليوم بتعمد الصمت لمدة 6 أيام، قبل الإعلان عن ظهور الفايروس داخل البلاد؛ تركوا خلالها الآلاف يسافرون لقضاء عطلة السنة القمرية، دون أي قيود أو تحذيرات من وجود فايروس.

وأقامت مدينة ووهان، بؤرة تفشي الوباء، "مأدبة جماعية لعشرات الآلاف" خلال احتفالات السنة القمرية.

عندما أطلق الرئيس الصيني شي جين بينغ تحذيره من خطر الفايروس، في السابع من يناير، كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف شخص أصيبوا بكورونا، خلال ما أسمته وكالة "أسوشيتيد برس"، أسبوع الصمت، الذي قالت إن الحزب الشيوعي قد فرضه.

ووصف عالم الأوبئة في جامعة كاليفورنيا الأميركية زوفنغ زانغ الصمت الصيني المتعمد بـ"الأمر الفظيع"، مؤكدا أن تأخرهم ستة أيام في الإعلان عن ظهور أول حالة تسبب في زيادة كبيرة بأعداد الإصابات والوفيات.

وسبق لتقارير إعلامية غربية أن تحدثت عن إجراءات صارمة وحملات تخويف مارستها السلطات الصينية تجاه أي شخص حاول الكشف عن تفشي الفايروس في البلاد.

وتحت شعار "ترويج الشائعات" المحبب من قلوب الأنظمة الدكتاتورية، سجنت الصين 8 أطباء بينهم الطبيب لي وينليانغ، الذي توفي في فبراير إثر إصابته بكورونا، بعد أن كان أول من حذر من انتشار الفايروس في مستشفى ووهان، وأجبرته السلطات حينها على الصمت.

ولا تقتصر الاتهامات الموجهة لحكام بكين على التكتم ستة أيام على الفايروس، حيث أعلنت واشنطن عن فتح تحقيق لكشف مصدره. وكانت سفارة الولايات المتحدة في بكين قد أخطرت وزارة الخارجية الأميركية، قبل عامين، عن تدابير وقائية غير كافية في مختبر في ووهان يعمل على دراسة فيروسات كورونا لدى الخفافيش.

> السياسيون في تعاملهم مع الأوبئة كمن يسير في حقل من الألغام، لا يعلمون متى ينفجر لغم تحت أقدامهم. رأينا ذلك يحدث في الماضي، مع ظهور السالمونيلا، ومع ظهور جنون البقر وإنفلونزا الخنازير

وتعتبر مصادر عدة أن فايروس كورونا الحالي مصدره هذا المختبر بالذات، وهو غالبا فيروس طبيعي، غير مركّب من قبل الصينيين، تسرّب لا إراديا بسبب اتباع تدابير وقائية غير سليمة.

وبينما رفض الرئيس الأميركي الخوض في التفاصيل، مكتفيا بالقول إن "هذه الرواية تتردد أكثر فأكثر. سنرى"، أشار وزير خارجيته مايك بومبيو ضمنيا إلى السلطات الصينية، عندما قال إن واشنطن تجري "تحقيقا مفصّلا بكل ما لديها من إمكانات حول كيفية تفشي هذا الفايروس، وانتقال العدوى في العالم".

وبناء على آراء خبراء، سجّل أول ظهور لفايروس كورونا المستجد أواخر العام 2019، في سوق لبيع الحيوانات البرية في ووهان، حيث تعرض للبيع حيوانات حية متنوعة من بينها جرذان وعظايا عملاقة وخفافيش. والمعروف أن معهد علم الفايروسات في ووهان يقع على مسافة بضعة كيلومترات فقط من السوق.

والصين إلى جانب ذلك متهمة بإخفاء الأرقام الحقيقية حول عدد الإصابات بالفايروس، وعدد الوفيات الناجمة عنه، وهذا ما دفع ترامب للتغريد عبر تويتر، قائلا إن أرقام الوفيات في الصين أعلى بكثير من الولايات المتحدة.

وكان الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون وجّه بدوره أصابع الاتهام إلى بكين. وقال لصحيفة "فاينانشل تايمز" البريطانية "من الواضح أن هناك أشياء حدثت ولا نعرفها"، مشككا في حصيلة الضحايا التي أعلنتها بكين.

ليست المشكلة في أن الصين أجرت تجارب على فايروس كورونا داخل مخابرها، الجميع يجري مثل تلك التجارب، وقد يكون التسرب، في حال ثبت ذلك، مجرد خطأ يمكن أن تلام عليه، ولكن دون أن يصل الأمر إلى حد التجريم.

"أسبوع الصمت" الذي أخفت الصين خلاله معلومات عن أول إصابات بالفايروس لمدة ستة أيام، هي الجريمة التي لن تغتفر لحكام بكين، حتى وإن كانت النوايا من وراء إخفاء المعلومات طيبة.

لن تنسى البشرية يوما أن هذا الصمت أتاح لفايروس كورونا الفرصة لاجتياح العالم.